

العبث وأزمة الخواء الوجودي في فكر ألبير كامو

Absurdity in the Thought of Albert Camus

شنوف نصرالدين^{*1}¹ جامعة الشلف، (الجزائر)، chennoufnasreddine92@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/12/27

تاريخ المراجعة: 2025/12/11

تاريخ الإيداع: 2025/07/09

ملخص:

يستكشف هذا المقال التجسيد الأدبي لألبير كامو لمفهوم العبث في إطار الفلسفة الوجودية. من خلال تحليل أعمال بارزة مثل "الغريب" و"الطاعون" و"السقوط"، يوضح المقال كيف يُعبّر كامو عن الصراع بين سعي الإنسان وراء المعنى وكون لا مبالٍ. يتضمن النقاش مقدمة للوجودية، وتعريف العبث، والعناصر الموضوعية والرمزية في روايات كامو. كما يتناول المقال تأثير كامو على الأدب والفلسفة، وإسهاماته الفلسفية، ونقد أعماله وتفسيراتها. وفي نهاية المطاف، يُسلّط المقال الضوء على الأهمية الدائمة لاستكشاف كامو للعبث في الخطاب المعاصر، مُشجّعًا القراء على الانخراط في أعماله والأسئلة العميقة التي تطرحها حول المعنى والوجود والحالة الإنسانية. إن هذا المقال يحاول مطارحة الإشكالية التالية: ما مفهوم العبث في الخطاب الفلسفي والأدبي لألبير كامو؟ وماهي المرجعيات الفلسفية والأدبية التي استند عليها كامو في تخريج سؤال معنى الحياة؟ وإلى أي مدى استطاع كامو تحويل تجربته الوجودية إلى نظرية فلسفية تشمل أسئلة المعنى والحياة والذات؟. ولمعالجة هذه الإشكالية استخدمنا مجموعة من الأدوات المنهجية يمكن اختصارها في ثلاثة مناهج أساسية: المنهج التاريخي الوصفي الذي يتناسب مع قضايا النقد الأدبي.

الكلمات المفتاحية: العبث، الوجودية، المعنى، الفلسفة، الأدب.

Abstract:

This article explores Albert Camus's literary embodiment of the concept of the absurd within the framework of existentialist philosophy. Through an analysis of prominent works such as "The Stranger", "The Plague", and "The Fall", it demonstrates how Camus expresses the conflict between man's pursuit of meaning and an indifferent universe. The discussion includes an introduction to existentialism, The article also examines Camus's influence on literature and philosophy, his philosophical contributions, and criticism and interpretations of his works, encouraging readers to engage with his works and the profound questions they raise about meaning, existence, and the human condition: What is the concept of the absurd in Albert Camus's philosophical and literary discourse? What are the philosophical and literary references on which Camus relied in formulating the question of the meaning of life? theory encompassing questions of meaning, life, and the self? To address this problem, we used a set of methodological tools that can be summarized in three basic approaches: the historical approach, the analytical approach.

Key words: Absurdity, existentialism, meaning, philosophy, literature*المؤلف المراسل

تقديم:

يتجذر استكشاف كامو للعبث بعمق في الوجودية، وهي حركة فلسفية ظهرت في القرن العشرين، مؤكدةً على ضرورة الكفاح الفردي لإيجاد معنى في عالمٍ لا مبالٍ. وتفترض الوجودية أن الحياة بطبيعتها لا معنى لها، لكننا من خلال أفعالنا وخياراتنا نخلق أهميتنا الخاصة. إن هذه الفكرة أو المقدمة الفلسفية البسيطة للوجودية ومبادئها الأساسية، تمهد الطريق لفهم مساهمة كامو الأصيلة في هذا المجال. وإن مفهوم العبث كما صاغه كامو لا يخرج عن هذا الإطار العام، خاصة من حيث أسسه الفلسفية وتجلياتها في رواية "أسطورة سيزيف". بناءً على هذا الأساس النظري، سنجري تحليلاً مفصلاً لأهم أعمال كامو الأدبية. وسيتم دراسة "الغريب" من خلال منظور بطلها "مورسو"، تجسيداً لبطل العبث الذي يجوب عالماً خالٍ من المعنى الجوهرية. أما في رواية "الطاعون" سنستكشف كيف وسّع كامو مفهوم العبث من التجربة الفردية إلى صراع جماعي ضد وباء مدمر. وأخيراً، سيتم تحليل "السقوط" من حيث أسلوبه السردى وموضوعاته المتعلقة بالذنب والمسؤولية، مما يُلقي مزيداً من الضوء على استكشاف كامو للفلسفة الوجودية. من خلال هذا التحليل الشامل، نهدف إلى إبراز الأثر العميق لأعمال كامو على كل من الأدب والفلسفة، مع تسليط الضوء على الأهمية الدائمة لأفكاره في الخطاب المعاصر.

أولاً: العبث والمحايثة

لقد لخص ألبير كامو وجودية هايدغر في عبارته الشهيرة: "يبحث هايدغر الوضعية البشرية ببرود ويعلن أن ذلك الوجود مذل، والحقيقة الوحيدة هي - القلق - في سلسلة الكائنات كلها ... إن العالم لا يستطيع بعد أن يقدم شيئاً للإنسان الذي يملأه العذاب"¹. يعكس هذا الاقتباس فلسفة كامو الوجودية المتأثرة بوجودية هايدغر ومقارباته لمواضيع القلق والموت واليومي، هذه الوجودية التي تُصارع التناقضات المتأصلة في الوجود البشري: السعي الدائم وراء المعنى في عالمٍ لا يُقدّم أي معنى. كما يُعدّ مفهوم العبث جوهريةً في أعمال كامو الأدبية والفلسفية إذ يعكس إيمانه بأن الحياة البشرية خالية من الهدف في جوهرها، ومع ذلك يجب علينا مواصلة البحث عن المعنى. وبغض النظر عن ذلك. يُشكّل هذا الموقف المتناقض أساساً لكامل كتاباته، ويُوفّر منظوراً يمكننا من خلاله دراسة الحالة الإنسانية. في هذا الجزء سنستكشف كيف تجسّد أعمال كامو الأدبية مفهوم العبث في إطار الفلسفة الوجودية، مُتعمّقين في روايته الرئيسية أسطورة سيزيف.

تنبع فلسفة العبث، كما طورها ألبير كامو، من إدراك وجود صراع جوهري بين رغبة الإنسان في المعنى والوضوح والنظام، وبين الكون الصامت واللامبالي الذي لا يقدم أي ضمانات من هذا القبيل. هذا التنافر بين البحث عن المعنى وغياب المعنى الجوهرية في العالم يؤدي إلى ما يصفه كامو بحالة العبث. ففي "أسطورة سيزيف" يقدم كامو العبث كمواجهة بشرية مع هذا الكون غير العقلاني، ويقترح أن نتخيل سيزيف، المحكوم عليه بالخلود في العمل العبثي، سعيداً. هذا القبول بالعبث لا يؤدي إلى العدمية، بل إلى شكل من أشكال التأكيد المتحدي للحياة². يجادل كامو بأنه بمجرد إدراكنا لعبثية وجودنا، يجب علينا أيضاً الاعتراف بحريتنا في خلق معنى خاص بنا وعيش الحياة بأقصى إمكاناتها دون اللجوء إلى آمال أو أوهاام زائفة.

تتسم مقارنة كامو للفلسفة بعناصر متناقضة متعددة. في مقاله الطويل "أسطورة سيزيف"، يُقدم كامو فلسفة تُناقض الفلسفة نفسها. ينتمي هذا المقال تمامًا إلى التراث الفلسفي الوجودي، إلا أن كامو أنكر كونه وجوديًا. يُشكك كلٌّ من "أسطورة سيزيف" وعمله الفلسفي الآخر "المتنمر" تشكيكًا منهجيًا في الاستنتاجات المتعلقة بمعنى الحياة، إلا أن كلا العاملين يُقدم إجابات موضوعية صحيحة على أسئلة جوهرية حول كيفية العيش. مع أن كامو بدا متواضعًا عند وصف طموحاته الفكرية، إلا أنه كان واثقًا بنفسه كفيلسوف بما يكفي للتعبير ليس فقط عن فلسفته الخاصة، بل أيضًا عن نقد الدين ونقد جوهرية للحدثة. ورغم رفضه لفكرة النظام الفلسفي ذاته³، فقد بنى كامو صرحه الأصلي من الأفكار حول المصطلحات الأساسية المتمثلة في العبث والتمرد، بهدف حل قضايا الحياة أو الموت التي كانت تدفعه إلى ذلك.

تتعلق المفارقة الجوهرية الناشئة في فلسفة كامو بمفهومه المحوري عن العبث. إذ يقبل كامو الفكرة الأرستية القائلة بأن الفلسفة تبدأ بالدهشة، ويجادل بأن البشر لا يستطيعون الفرار من طرح سؤال "ما معنى الوجود؟". إلا أنه ينكر وجود إجابة على هذا السؤال، ويرفض كل غاية علمية أو غائية أو ميتافيزيقية أو من صنع الإنسان من شأنها أن تقدم إجابة وافية. وهكذا، فبينما يقبل كامو سعي البشر الحتمي لفهم غاية الحياة فإنه يتبنى موقفًا متشككًا بأن العالم الطبيعي والكون والمشروع البشري يصمتون عن أي غاية من هذا القبيل. ولأن الوجود نفسه لا معنى له، فعليًا أن نتعلم تحمل الفراغ. هذا الوضع المتناقض، إذن بين اندفاعنا كذوات لطرح الأسئلة النهائية واستحالة التوصل إلى أي إجابة وافية عنها، هو ما يسميه كامو العبث. وتستكشف فلسفة كامو عن العبث العواقب الناجمة عن هذه المفارقة الأساسية.

إن فهم كامو للعبثية يتجلى على أفضل وجه في صورة سيزيف وهو يجهد لدفع صخرته إلى أعلى الجبل ويشاهدها تتدحرج إلى أسفل، ثم ينزل خلف الصخرة لبدأ من جديد، في دورة لا نهاية لها. ومثل سيزيف، لا يسع البشر إلا أن يستمروا في التساؤل عن معنى الحياة، فقط لرؤية إجاباتنا تتعثر إلى أسفل. وهكذا إذا قبلنا هذه الأطروحة حول عبثية الحياة الجوهرية، ومنهجية كامو المناهضة للفلسفة الحديثة المتشعبة بالمنطق وخطاب المنهج، فلا يسعنا إلا أن نسأل: ما الدور المتبقي للتحليل العقلاني والجدل في مجابهة أسئلة الحياة والمعنى؟ ولماذا كامو من حيث هو فيلسوف رغمًا عن أنفه كان دائمًا ينادي بصوت عالٍ إلى ضرورة مجاوزة هذا النمط الحديث من الفلسفة في مواجهتنا لأسئلة الوجود؟ وهل بإمكان هذا الضرب الجديد من الفلسفة اللجوء دائمًا إلى الاستعارة والمجاز والتمثيل والفن للإجابة على الأسئلة الكبرى؟ إذا لم يكن للحياة غرض أو معنى أساسي يمكن للعقل التعبير عنه، فلا يسعنا إلا أن نسأل عن سبب استمرارنا في العيش والتفكير. أليس من الممكن أن يكون سيلينوس على حق في إعلانه أنه كان من الأفضل ألا يولد، أو أن يموت في أقرب وقت ممكن؟⁴، وكما كتب فرانسيس جينسون قبل وقت طويل من انتقاده الشهير لرواية المتنمر والتي أدت إلى القطيعة بين كامو وسارتر أليس الفلسفة العبثية تناقضًا في المصطلحات، وبالمعنى الدقيق للكلمة ليست فلسفة على الإطلاق ولكنها موقف مناهض للعقل ينتهي بالصمت⁵.

هل كان كامو فيلسوفًا بالفعل؟ هو نفسه نفى ذلك، في مقابلة شهيرة مع جانين ديلبيش في مجلة "الأدباء الجدد" في نوفمبر 1945، مُصرًا على أنه "لا يؤمن بالعقل بما يكفي ليؤمن بنظام فلسفي"⁶. لم يكن هذا مجرد موقف عام، إذ نجد الفكرة نفسها في دفاتر ملاحظاته لتلك الفترة: يصف نفسه بأنه فنان وليس فيلسوفًا لأنه "يفكر وفقًا للكلمات لا وفقًا للأفكار"⁷. ومع ذلك، أدرك جان بول سارتر فورًا أن كامو كان يضطلع بعمل فلسفي مهم، وفي مراجعته لرواية "الغريب" في علاقتها بسيزيف، لم يجد صعوبة في ربط كامو بباسكال وروسو ونييتشه. وبعد أن أصبحا صديقين، تحدث سارتر علنًا عن "فلسفة العبث" التي تبناها صديقه، والتي ميزها عن فكره الخاص الذي قبل فيه تسمية "الوجودية" التي رفضها كامو. وفي السنوات التي تلت ذلك، أدى الطابع غير المنهجي، بل المضاد للمنهجية لفلسفته إلى أن قلة قليلة من الباحثين قدّروا عمقها وتعقيدها الكاملين. وكثيرًا ما أشادوا بإنجازاته الأدبية ومكانته كفيلسوف أخلاقي سياسي مع الإشارة إلى ادعاءاته المشكوك فيها وحججه الإشكالية، ومن الاستثناءات المهمة التي صدرت مؤخرًا كتاب رونالد سريجلي "نقد ألبير كامو للحدث".

ثانيًا: العبث والوجودية

عند نشر رواية "الغريب" عام 1942، كتب سارتر تعليقًا مُنيرًا ربط الرواية بفلسفة كامو في العبث. من أبرز رؤى التعليق التمييز الذي يطلقه سارتر بين نقل الفكرة ونقل الشعور؛ إذ يدّعي أن هدف "الغريب" هو نقل شعور العبث، بينما هدف "أسطورة سيزيف" هو نقل فكرة العبث. فإذا كان نقل الفكرة يُمثل إخبارنا عنها، فإن نقل الشعور يُمثل توليد الإحساس نفسه. مع ذلك، يُبقي سارتر التمييز بين الفكرة والشعور على مستوى حدسي، ولا يُفرّق بين عمل يُخبرنا بشيء وعمل يُولّد شيئًا⁸.

يبدو أن سارتر يفترض أيضًا أنه وكامو يتشاركان المفهوم نفسه للعبث. ومع ذلك، فإن "العبث" مصطلح تقني لكلا الفيلسوفين، ولا يقصدان به الشيء نفسه. باختصار، العبث الكاموي هو عدم توافق بين التفكير النظري والتفكير العملي، ينبع من عجز تفكيرنا النظري في مواجهة الأسئلة التي يجب أن نجيب عليها (ونقدم إجابات عملية لها) بخصوص الحياة. على سبيل المثال، لا يسعنا إلا أن نساير الحياة لمجرد أننا ذوات محبين للحياة، ولكن حسب كامو لا يوجد أساس نظري يمكننا من مواجهة الأسئلة القلقة المتعلقة بالمصير والمستقبل وبالتالي فإن العالم يكشف عن نفسه على أنه غير مبالٍ، إن لم يكن معاديًا، لمصالحنا العملية.

على النقيض من ذلك، فإن العبث السارترى هو عجزنا النظري عن تفسير العرض أو الوجود. إن انعدام أساس الوجود - حقيقة أن الأشياء موجودة بدون سبب أو تفسير - هو العبث. لقد أغفل سارتر حقيقة أن العبث الكاموي هو في الأساس توتر بين الحاجة وعدم القدرة على تلبية هذه الحاجة، ولهذا السبب أغفل كيف تولد رواية الغريب شعور العبث من خلال وضع القارئ خياليًا ليصبح على دراية بالحاجة إلى الحكم وعدم قدرته على الرضى بهذا الحكم⁹.

وتُعدّ آراء باسكال حول الموت مصدرًا أساسيًا لإلهام كامو. يكتب باسكال في "الأفكار": "تخيل عددًا من الرجال مقيدون، محكوم عليهم جميعًا بالإعدام، يُذبح بعضهم كل يوم أمام أعين الآخرين. يرى الباقون حالتهم

في حالة رفاقهم، وينظرون إلى بعضهم البعض بحزن ويأس، منتظرين دورهم. هذه هي صورة الحالة الإنسانية في عصرنا¹⁰، مما يوحي به هذا النص بأن الحياة معاناة بطبيعتها، وأن كل إنسان يواجه حقيقة الموت الحتمية. ووفقاً لبايسكال، فإن هذا يثير السؤال: بما أننا محكومون بالموت، فما معنى الحياة؟ يُجيب كامو بأن الحياة بحد ذاتها ذات معنى. ففعل الحياة، وإن كان بلا معنى في جوهره، هو مصدر أهميتها. يمكن للإنسان أن يعيش بلا هدف أو أن يعيش حياة رائعة. هذا ما يسميه كامو التغذية الراجعة، وهي وسيلة لمواجهة عبثية الحياة.

في القرنين التاسع عشر والعشرين، كان سورين كيركيغارد وكارل ياسبرز أبرز الوجوديين المسيحيين في الساحة الفلسفية. اقترح كيركيغارد، الذي يُعتبر أباً للوجودية، أن الوجود يسبق الجوهر، معارضاً بذلك النظرة الفلسفية التقليدية الأرسطية القائلة بأن الجوهر يسبق الوجود. تتسم أفكار كيركيغارد بطابع ديني عميق، إذ يؤكد أن الوجود البشري قائم على وجود الله وخلق. ويعتقد أن وجود الكون والوجود البشري لهما قيمة جوهرية، إلا أن هذه القيمة مُنحت من الله. وافق كامو على آراء كيركيغارد الوجودية، لكنه أعرب عن أسفه لاعتماده على الله في حرية الإنسان. ورأى كامو أن موقف كيركيغارد من وجود الله ومعنى الوجود البشري متطرف للغاية ويفتقر إلى الروح النقدية¹¹. علاوةً على ذلك، أغفل تركيز كيركيغارد المفرط على الحرية الفردية تأثير المجتمع والتاريخ. لذا، دعا كامو إلى أنه في مواجهة انعدام المعنى وعبثية الوجود، ينبغي للبشرية التركيز على خلق معناها وقيمها الخاصة.

في "أسطورة سيزيف"، يقتبس كامو من كتاب نيتشه "هكذا تكلم زرادشت": "عندما كان زرادشت وحيداً خاطب قلبه هكذا: "أيمكن هذا! هذا القديس العجوز في غابته لم يسمع بعد أن الله قد مات!"¹². تتميز فلسفة نيتشه بروح تمردية قوية. فقد انتقد الفلسفة التقليدية والمفاهيم الأخلاقية، معتقداً أنها تقيد حرية الإنسان. بالإضافة إلى ذلك، أكد على الحرية الفردية والإبداع، مؤكداً أن على كل فرد أن يسعى بجرأة إلى حريته الفردية. فلا يمكن للمرء أن يحقق إمكاناته ويتطور ذاتياً إلا بتجاوز القيود التقليدية. عارض نيتشه أيضاً مفهوم الله معتقداً أن المسيحية وفكرة الله تقمعان حرية الإنسان ويجب التخلي عنهما. أعجب كامو بأفكار نيتشه المتمردة لكنه لم يتفق معها تماماً. فقد وجد فلسفة نيتشه متطرفة واستبدادية للغاية، وهو ما عارضه كامو. ومن الإنصاف القول إن عالم نيتشه أصبح بمثابة مناخ عبثي بالنسبة لكامل، حيث يُنظر إلى المثالية والعدمية على أنهما أوهام خطيرة ومنحطة. ينسج كامو أفكاره مع أفكار نيتشه في جميع أنحاء كتاب "المتنرد"، لكنه يخاطبه تحديداً في القسم المطول المخصص لـ "نيتشه والعدمية"، حيث يكتب كامو عن اكتشافات نيتشه باعتبارها بداية عالم جديد: "منذ اللحظة التي لا يؤمن فيها الإنسان بالله ولا بالحياة الخالدة، يُصبح مسؤولاً عن كل ما هو حي عن كل ما وُلد من معاناة، وحُكم عليه بمعاناة الحياة"¹³. إنه هو وحده، من يجب أن يكتشف القانون والنظام. ثم يبدأ زمن المنفى، والبحث اللامتناهي عن التبرير، والحنين بلا هدف، "أكثر الأسئلة إيلاًماً وحرزاً، سؤال القلب الذي يسأل نفسه: أين أشعر بأنني في وطني؟"¹⁴.

ثالثاً: تجليات فلسفة العبث في روايات كامو

أ: العنصر الفلسفي والوجودي في رواية الغريب

يتمحور موضوع رواية "الغريب" لألبير كامو حول مفهوم العبثية وانعدام معنى الحياة. يجسد بطل الرواية، مורسو، فلسفة الوجودية والعبثية، وهو يجوب عالماً يبدو غير عقلاني وخاليًا من الهدف. إن من بين المواضيع الرئيسية التي تستكشفها الرواية هي العبثية والكون اللاعقلاني، بحيث تعكس الرواية مفهوم كامو الفلسفي عن العبثية، حيث تفتقر حياة الأفراد والوجود البشري إلى أي معنى أو نظام منطقي. إن أفعال مورسو - بطل الرواية - مثل قراره بالزواج من ماري وقراره بقتل العربي سلوكيات تبرز لاعقلانية الكون وانعدام معنى الحياة، يرى مورسو العالم بلا معنى، ويرفض محاولات الآخرين لإيجاد هياكل عقلانية لتدبير هذا الأمر. ويرفض الجهود الدينية والعلمانية على حد سواء لإيجاد حل للخروج من اللامبالاة والسلبية التي تحكم الكون، إن موقف مورسو غير المبالي تجاه وفاة والدته والأحداث الأخرى في حياته يوضح طبيعته السلبية وانفصاله عن الأعراف والعادات المجتمعية السائدة.

إن الإطار السردى لرواية "الغريب" واضح ومباشر: مورسو، بطل الرواية، كاتب يتلقى رسالة تُبلغه بوفاة والدته في دار المستن. يسافر لحضور جنازتها، وبعد عودته، يخرج مع صديقه ريموند. يتورط ريموند في شجار مع مجموعة من العرب، وفي خضم ذلك، يطلق مورسو النار على أحدهم ويقتله. وهكذا ينتهي الجزء الأول من القصة. أما الجزء الموالي، فيتناول محاكمة مورسو، التي لم يحاكم فيها بتهمة قتل العربي فحسب، بل حوكم أيضًا بتهمة قتل والدته أخلاقياً. يُحكم على مورسو بالإعدام، وفي زنانيته، يُجري عدة محادثات مع الكاهن، الذي يحاول إقناعه بالإيمان. في حين أنه يرفض هذا الخيار، ويُصرّ حتى النهاية على التزامه بالوجود، حتى عندما يواجه خطر الموت. ومع ذلك، وبعيداً عن هذا الإطار السردى، تبدو القصة غريبة، وتظل، إلى حد ما، لغزاً غامضاً لم يُحل. نظن أننا نقرأ هذه الرواية في مذكرات مورسو، ولكن هل مورسو هو الراوي؟ ظاهرياً، تتبع القصة مسار الأحداث في زمن المضارع المستمر، كما هو موضح في السطر الافتتاحي: "توفيت أمي اليوم. أو ربما بالأمس؛ لست متأكداً"¹⁵. إلا أن هذا الأسلوب يؤدي إلى مفارقة مثيرة للاهتمام. في الجزء الأول، يظهر مورسو كرجل تُشكل تجربته المباشرة وجوده؛ فهو ليس كائنًا متأملًا يُعيد النظر في وجوده. وعندما سألته محاميه عما إذا كان قد حزن على وفاة والدته، أجاب بأنه في السنوات الأخيرة كان يفضل أن يفقد عادة تدوين مشاعره.

إن تصريح مورسو عن نفسه فيه الكثير من الاتباس، لأن وصفه بأنه غير مُتأمل هو في حد ذاته تصريح مُتأمل. تُلَمّح صياغة هذا التصريح إلى ماضي كان فيه التأمل حاضراً، ورغم التخلي عنه الآن عمداً، إلا أنه لا يزال يُعتبر خياراً حقيقياً. لو كان مورسو شخصاً غير مُتأمل غارقاً في تجربته المباشرة، لما دَوّن مذكراته ولما روى تجربته، لأن هذه الأفعال تتجاوز اللحظة المباشرة. لذا، يجب أن يكون الراوي، على حد تعبير روبرت سي سولومون "مورسو آخر، مورسو متأمل"¹⁶.

غالبًا ما يُحدد النقاد نقطة انطلاق فلسفة كامو في إدراكه لعبثية الوجود (وفقاً لهذا الرأي، فإن أول نص فلسفي حقيقي له هو "أسطورة سيزيف" وبعده نص "الغريب"). وينظرون إلى مفهومه للثورة على أنه استكشاف لفعل تجاوز، وللهروب من العبث الذي يدعي كامو أنه لا يمكن أن يكون أكثر من عتبة، حالة لا يمكن لأحد البقاء فيها طويلاً. لا بد من شقّ مأساوي ينقلب على نفسه بقوة، انفصال عن العالم يؤدي إلى عراك وحراك فكري

وثقافي ينتهي بثورة. ووفقاً لهذا الرأي، فإن نصوصاً مثل "الضيف" و"المرأة الزانية"، التي تُصوّر جمال الجزائر الباهر وأماكن الطفولة الثمينة، لا يمكن قراءتها إلا على أنها مقالات أدبية ينغمس فيها الكاتب في متعة وتأمل طائشين، أدنى بكثير من أي فكر فلسفي أو أبعد منه.

يتخذ كتاب "لوران بوف" موقفاً ضد هذا التفسير الثنائي، ويكمن أهميته في كشفه عن خيط فلسفي محوري يخترق جميع أعمال كامو، منذ بداياته. ومع ذلك، لا يهدف هذا الكتاب إلى إضافة فلسفة شبابية إلى المرحلتين الرئيسيتين (العبث والثورة) اللتين تُعرفان عادةً في فلسفة كامو، بل إلى الكشف عن الروح الفلسفية ذاتها التي تخترق مجمل أعماله، والتي تُغذي مواضيعها الرئيسية: العبث، والثورة، والحب.

في مواجهة التفسير الأحادي الجانب الذي ينظر إلى "الغريب" باعتباره رواية العبث، ومورسو باعتباره النموذج الأصلي للإنسان العبثي الذي يرفض القواعد الوهمية التي فرضها عليه المجتمع على حساب الغرق التدريجي في العدمية السلبية، يكشف لوران بوف عن جانب مختلف من الشخصية، والذي يصبح أكثر إقناعاً كلما تقدمت في الرواية، كرجل يتخلى عن نفسه للامبالاة العالم، ويحتضن حقيقة الأجساد البشرية وبالتالي يحرر نفسه من آمال وأوهام الآخرين، غريب ليس في علاقته بالعالم نفسه، ولكن في علاقته بالصورة المشوهة وغير المجدية التي تحملها البشرية عنه. كما يشير لوران بوف: "تنتقل رحلة مورسو من تجربة الفراغ وقدرته على فصل الكون عن الأساطير والمشاعر التي تخضع له، إلى تجربة كثافة وتنوع الواقع، في داخله وخارجه"¹⁷.

يكتسب تحليل لوران بوف أهمية بالغة لأنه يُعيد قراءة نصّ كامو، الذي يُرجّح أنه الأقل فهماً والأكثر إثارة للجدل في عصره، ألا وهو "المتنرد". وعلى النقيض من القراءات المتحيزة لسارتر أو جينسون، اللذين رأى في مقال عام 1951 صرخة لا طائل منها من قلب روح جميلة أثرت البقاء على هامش التاريخ بدلاً من تعريض نفسها للخطر بالمشاركة فيه، يُبين لوران بوف أن الترابط الجوهرى بين فلسفة الوجود والقبول بالعالم من جهة وفلسفة الثورة من جهة أخرى، بعيداً عن جعل هذه الثورة غير فعّالة وغير مادية، يُشكّل الأساس المتين الوحيد الممكن لمجتمع إنساني حيّ. في الواقع، لا يمكن اتهام كامو باللاتاريخية إلا بخلط التاريخ (كحضارة) بالتاريخ كما تُعرّفه الأيديولوجيات العدمية الرئيسية (الشمولية السوفياتية، النازية)، بينما في الواقع، كل ما يفعله هو إعادة تأكيد حقوق النوع الأول من التاريخ، وهو إنساني وإبداعي بامتياز، على النوع الثاني، وهو قاتل وغير نزيه بمعارضة وهم الشمولية.

يذهب البعض إلى أن فلسفة كامو تتطور، قبل كل شيء، من شعور بالعبثية، وهو شعورٌ بدبيّ وتجريبيّ في آنٍ واحد. العبث وفقاً لهذا الرأي، هو الأساس التأسيسي لفكر كامو، وهو حاسة أولية، ونمط أساسي للوعي يسبق كل تجربة ويحدد مسار وجودنا. نحن نخبر العبث في حياتنا اليومية لأن الإحساس المسبق بالعبث هو أساس التجربة الإنسانية¹⁸.

في "أسطورة سيزيف"، يبدأ كامو في مواجهة شعور العبث بشكل غير مباشر. فبدلاً من التساؤل عن ماهية العبث أو مصدره، يطرح سؤالاً مختلفاً تماماً: لماذا لا يكون الانتحار؟، إن المعطى الأساسي لكامل ونقطة

انطلاقه في رحلته نحو فك رموز العبث، هي إمكانية أن يكون الانتحار خياراً حقيقياً. فالحياة ليست بديهية، والسؤال الأساسي هو معنى الحياة. وبدون إجابة مُرضية على هذا السؤال، يكون الانتحار هو الإجابة الأكثر منطقية.

بالنسبة لألبير كامو، لم تكن هناك في الواقع سوى مشكلة فلسفية واحدة بالغة الأهمية، ألا وهي الانتحار. إلا أن الحائز على جائزة نوبل في الأدب عام 1957 لم يكن يقصد بهذا السؤال الأخلاقي: هل يجوز أو يُحرم الانتحار؟ بل قلب المسألة رأساً على عقب، وتساءل عن الأسباب الحقيقية لعدم الانتحار. وجادل كامو بأنه قبل الخوض في أي معضلة فلسفية أخرى، يجب توضيح "هل الحياة جديرة بالعيش أم لا؟"¹⁹. بالنسبة لكامو مسألة جدوى الحياة تتطابق مع مسألة معناها. في الواقع، تلتقي كل هذه المعاني في السؤال الوجودي عن المعنى من يسأل عن معنى الحياة يبحث عن غاية أو هدف أسمى يُرشد مسار حياته ويُحقق فيه وجوده ككل.

لا يمكن لأي إنسان أن يعيش بلا معنى إلى الأبد. إن التوق إلى المعنى - إلى غاية أسمى لوجودنا - أمرٌ مُسلم به في الأنثروبولوجيا، كالحاجة إلى الطعام والمأوى. إلا أنه في العصر الحديث فقط، كان من الممكن، بل كان لا بد من طرح مسألة المعنى بتعبير كامو. ففي العصور الماضية، لم يكن معنى الوجود وغايته في حد ذاتهما موضع نقاش. أما في اليونان القديمة، وكذلك في الألفية المسيحية المجيدة، التي نسميها عادةً "العصور الوسطى" فقد ساد افتراض وجود غاية مُرشدة للطبيعة، ومعنى الكون بأسره، الذي كان الله غايته النهائية. ويُعدّ اسماً أرسطو وتوما الأكويني مثالين على العمق الفلسفي ودعم هذه الثقة الجوهرية بالعالم والله.

لقد حدث انحلال تجربة الوجود المفعمة بالمعنى أساساً من خلال عصر التنوير، وبلغ ذروته في نهاية المطاف بـ "شعور العبث" الذي عبّر عنه كامو ببراعة. ويكتب أن هذا يعكس "الشقاق بين الإنسان وحياته، بين الفاعل وإطاره"²⁰. لذا، فإن العبث ليس جزءاً من العالم، بل هو اختلال بين العالم والذات. ويجادل كامو بأن العبث هو صدام اللاعقلاني مع الرغبة الشديدة في الوضوح التي تتردد أصدائها في أعماق الإنسان.

إن افتراض كامو أن المعنى هو السؤال الأكثر إلحاحاً، وأن البشر يجدون معاني مختلفة للحياة، يجعل من نقطة انطلاق كامو هي ثنائية الكل أو العدم: فالحياة لها معنى، وإلا فالعيش لا طائل منه. ينبع هذا التساؤل من الوجود، الذي يتميز بشعور عميق باليأس وعدم القدرة على إيجاد معنى في لحظات الحياة اليومية. ويفترض هذا التساؤل ضمناً أيضاً النظرة العالمية الدينية والميتافيزيقية الكلاسيكية، حيث يكون المعنى جزءاً من نظام وجودي شامل وموحد.

ب: كامو المفكر الشخصي

ينظر النقاد إلى كامو كنوع خاص من الفلاسفة، أما "جيرمين بري" فتصنفه في خانة المفكر الشخصي²¹. ومثله مثل كل المفكرين الشخصيين، حوّل كامو حياته الملموسة إلى موضوع اهتمامه. لفهم آثار هذا المفهوم على تفسير أعمال كامو، نحتاج إلى توصيف أكثر دقة للفلسفة الشخصية. إن تفكير الفلاسفة الشخصيين هو نتاج صراعاتهم مع مشكلة شخصية، ومع تجربة حياتية ملموسة. على عكس الفلاسفة الأكاديميين، لا يهتم الفلاسفة

الشخصيون بالمسائل النظرية؛ فهم لا يحللون المفاهيم المجردة، وما يحركهم هو سؤال أساسي يطرحه وجودهم الخاص. أما جهودهم الفلسفية فهي محاولة لحل معاناتهم، وللوصول إلى انسجام جديد، واستعادة التوازن الذي أفسدته الإشكاليات التي تُقضم حياتهم. يلتزم المفكرون الشخصيون بالوصية اليونانية القديمة "اعرف نفسك": فهم يعودون إلى ذواتهم.

إن كامو فيلسوف يتخذ من تجربته الشخصية نقطة انطلاق له. بحيث تصبح هذه التجربة محور تفكيره ويفترض هذا النهج أن التجربة الإنسانية الشخصية للوجود ليست تأملية. بحيث لا يحوّل الناس حياتهم بالضرورة إلى موضوع للتأمل الفلسفي. ومع ذلك، يجعل كامو حياته محور دراسته، ساعياً إلى فهم معنى أساليب تجربته الوجودية.

الخاتمة:

في ختام هذا العمل يمكننا التوقف على مجموعة من النتائج الأساسية التي تمخضت عليها الدراسة ويمكننا حصر هذه النتائج في التأكيد أولاً على أن كامو في طرحه لمفهوم العبث، قد سلط الضوء على الصراع بين رغبة البشر في إيجاد المعنى وبين كون لا يسع أمنياتهم وطموحاتهم الوجودية. فمن خلال شخصية سيزيف الأسطورية، المحكوم عليه بمهمة أبدية عبثية، يُجادل كامو بأنه يجب على المرء أن يتخيل سيزيف سعيداً مُعتنقاً عبثية الحياة دون اللجوء إلى أمل زائف أو الدخول في حالة من يأس والاكتئاب.

لقد جسّد كامو في مختلف رواياته الحالة الإنسانية والنضال الجماعي ضد المعاناة والموت. وناقش من خلالها جملة من التصورات الفنية والأدبية التي توزعت أحداثها على عدة موضوعات، نلتبس هذا البعد الفني في المشهد الذي ارتسمه حول أحداثها مدينة وهران الجزائرية، وتصوره لاستجابة المجتمع لوباء مُدمر، مُرمزةً إلى مكافحة الاستبداد والتحديات الوجودية لإيجاد التضامن والمعنى في عالم يبدو لامباليًا. كما نلتبس البعد الفلسفي في رؤيته الجذرية حول طبيعة التمرد، وحدود الحرية الإنسانية، والآثار الأخلاقية للثورة، مما يُرسّخ دوره كمفكر ناقد في الفلسفة الوجودية والعبثية. ومن خلال هذا يجعل كامو من التمرد موضوعاً رئيسياً في العبثية. فهو يُمثل التحدي الواعي للعبثية، ورفضاً للاستسلام لليأس. فبالنسبة إلى كامو، يُصبح التمرد شكلاً من أشكال الحياة ووسيلةً لتأكيد وجود المرء وقيمه في عالم خالٍ من المعنى الجوهرية. وهكذا أثّرت العبثية تأثيراً عميقاً في الأدب والفكر الحديث. وألهمت أعمالاً لا تُحصى تتناول مواضيع القلق الوجودي، والبحث عن المعنى، والحالة الإنسانية. ويواصل الكُتّاب والمسرحيون والفلاسفة استكشاف أفكار كامو وتوسيع نطاقها، مما يضمن استمرار إرثه في الخطاب المعاصر.

هوامش وإحالات المقال

- 1 - ألبير كامو، أسطورة سيزيف، تر: أنيس زكي حسين، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، 1983، ص32-33.
- 2- المصدر نفسه، ص38.
- 3- المصدر نفسه، ص75.
- 4 -Albert, Camus, (1996). La peste. Edité par Yves Ansel, (SE). Gallimard, Paris8.P 123 .
- 5 - Lebesque, Morvan.(1963). Albert Camus par lui-même, Ecrivains de Toujours,(SE). Editions du Seuil, Paris. P85 .
- Mareal melancon;Albert camus; Analyse de sa pensée; paris;edition universitaires fribourg;suisse;libirie klin cksiseck;france;1976;p 89.6 -
- 7 - Leo pollman,sartre and camus,literature of existence, new York ,1970,p152
- 8 - أنظر: جون كروكشانك : ألبير كامو وأدب التمرد، ترجمة هلال العشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة مصر، د ط ، 1986، ص52.
- 9- المرجع نفسه، ص64.
- 10 - .Pascal, B. Les Pensées. Paris: Neslon Editeurs.1943. p81
- 11 - ألبير كامو، الغريب وقصص أخرى، ترجمة عائدة مطرجي إدريس، دار الآداب، بيروت لبنان، ط4، 1990 ص79.
- 12- ألبير كامو، أسطورة سيزيف، مصدر سابق، ص41.
- 13- ألبير كامو، الإنسان المتمرد، ترجمة نهاد رضا، منشورات عويدات بيروت، باريس، ط3، 1983، ص61.
- 14- المصدر نفسه، ص65.
- 15- ألبير كامو، الغريب وقصص أخرى، مصدر سابق، ص115.
- عبد الغفار مكاوي، ألبير كامو: محاولة لدراسة فكره الفلسفي، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2018، ط1، ص 3816.
- 17 -C. O'Brien : Albert Camus analyse de l'Etranger, Ed. Seghers, Paris 1970, p128
- 18- ألبير كامو، أسطورة سيزيف، مصدر سابق، ص132.
- 19- المصدر نفسه، ص33.
- 20- أنظر: حمد يحياتن، مفهوم التمرد عند ألبير كامو و موقفه من الثورة الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط ، 1984، ص61.
- 21- المرجع نفسه، ص64.